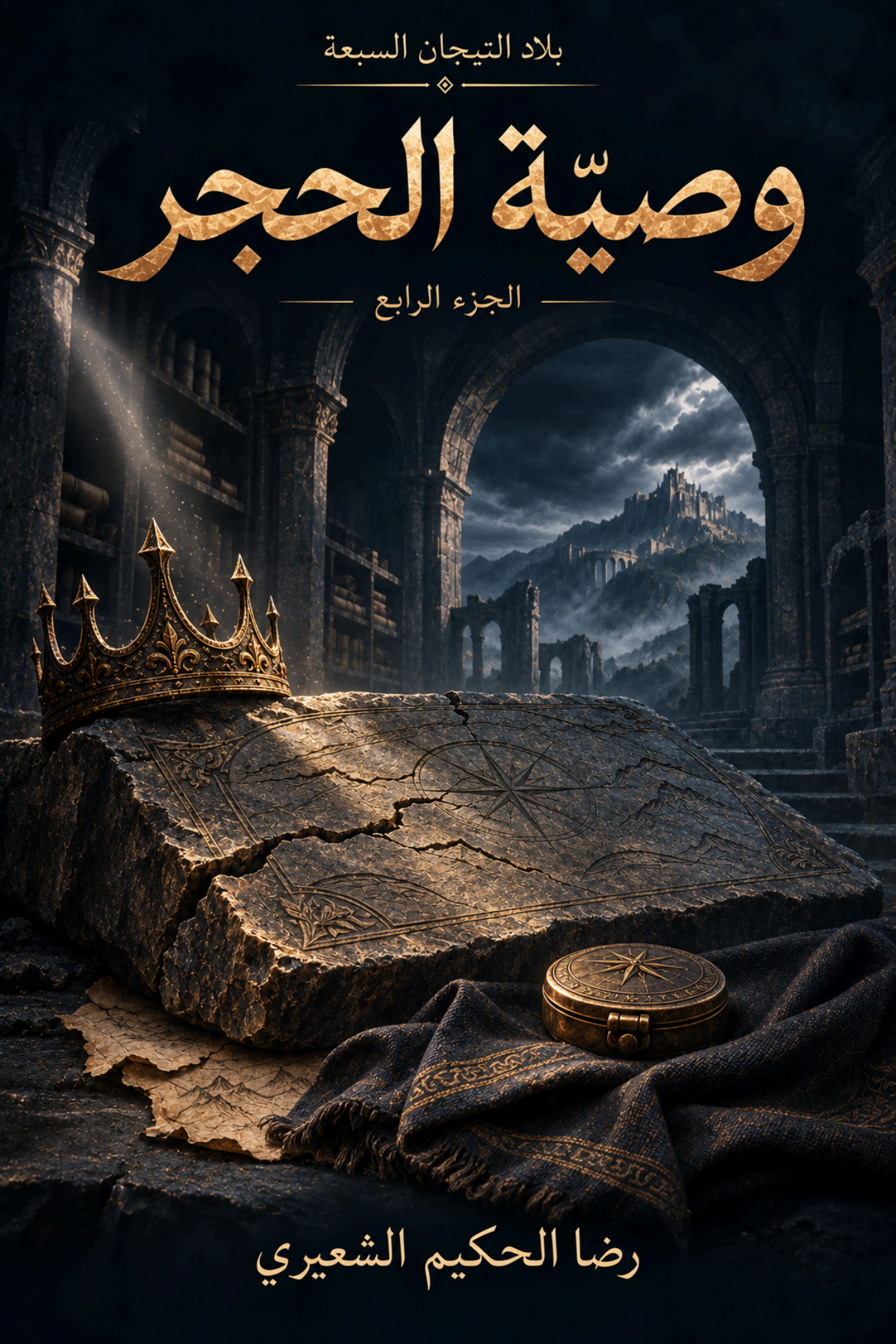

بلاد التيجان السبعة
وصيّة الحجر
الجزء الرابع
رضا الحكيم الشعيري

بلاد التيجان السبعة

وصيّة الحجر

الجزء الرابع

رضا الحكيم الشعيري

كان الرجل فوق البرج يتحرك كلما اختفى وراءه طرف الشراع.

لم ينتبه نائل إليه أول مرة. حسبه قطعة قماش عالقة في أعلى البناء، ثم رأى اللمعة القصيرة التي ظهرت قرب كتفه، ورأى الذراع ترتفع لتستقر فوق حافة الحجر.

قال، وهو يشير من تحت الحبل:

«هناك أحد.»

رفعت نيرفا رأسها. كانت جالسة إلى جوار الصارية، وساقها ممدودة فوق رداء مطوي. تتبعت إصبعه، ثم قبضت على حافة المقعد وانخفضت حتى حجبها جانب السفينة. سحبت غطاءها فوق شعرها، وراقبت البرج من الفرجة بين لوحين.

«لا ندخل ذلك المرسى.»

خفف أوران الشراع. مال القماش، فمالت السفينة معه، وانزاح البرج قليلًا عن مقدمتها.

سأل نائل:

«من جنود قاسران؟»

«لا أميز ألوانه من هنا.»

نظرت إلى الشاطئ مرة أخرى، ثم أضافت:

«لكن الطريق الذي يصعد منه يمر بنقطة تفتيش. إن رأوا وجهي فلن يسألوا عمّا نحمله من أخبار.»

تحرك رفال عند باب المقصورة. كان قد خرج قبل قليل وأصر على الجلوس حيث يرى البر، لكنه لم يستطع رفع نفسه إلا بعد أن أسند كفيه إلى الخشب. أغمض عينيه وهو على ركبتيه، ثم أعاد ظهره إلى الباب.

تناول رائف القدح من جواره قبل أن ينقلب.

«أردت أن أعرف إن كنا وصلنا.»

قالها رفال بصوت خشن، وحاول ابتسامة لم تكتمل. كانت أصابعه أقل انتفاخًا مما كانت عليه عند مغادرة رهفان، لكنه ما زال يضمها ببطء، إصبعًا بعد إصبع، كأنه يختبر إن كانت ستطيعه.

قال أوران:

«وصلنا إلى الساحل. بقي أن نجد موضعًا ينزل منه الجميع.»

في تلك اللحظة رفعت إيسا يدها السليمة.

كانت واقفة عند المقدمة، وقد أدخلت ذراعها الأخرى في حمالة صنعها رائف من قطعة قماش. مالت إلى الخارج مقدارًا جعل نائل يمد يده إلى حزامها، لكنها عادت قبل أن يبلغها.

«اتبع هذا الماء.»

لم ير نائل سوى سطح داكن تتكسر عليه خطوط الضوء. وراءه كان البحر أفتح لونًا، ترفعه الريح إلى رؤوس صغيرة بيضاء.

«أي ماء؟»

«الذي لا ينكسر.»

انتظر حتى هبطت السفينة. ظهر شريط ضيق يمتد بمحاذاة الجرف، ثم ينحرف عند صخرتين تكاد إحداهما تحجب الأخرى.

أدار أوران الدفة نحوه.

قالت نيرفا من خلف الحافة:

«لا يوجد مرسى هناك.»

«يكفينا أن يسترنا الصخر الليلة.»

اقتربت إيسا من جانب السفينة، تتبع الشريط بعينيها. كانت الشمس قد نزلت خلف المرتفعات، ولم يبق من ضوئها على الماء إلا ما يصل من الفتحة الغربية. كلما تقدموا ضاقت الفتحة، وازدادت الصخور سوادًا.

«أبطئ هنا. لا تترك التيار يدير المؤخرة.»

أمسك نائل بالحبل الذي أشار إليه أوران، وساعده رائف على جمع الشراع. حين اختفى آخر طرف من القماش فوق رأسيهما، سمعا احتكاك الماء بالهيكل أوضح مما سمعاه طوال النهار. لم يعد البرج ظاهرًا.

تقدمت السفينة بين الصخرتين. وراءهما انفتح جيب صغير في الجرف، عميق في وسطه، وعلى جانبه شريط حصوي لا يتجاوز عرضه بضع خطوات. كانت صخرة قائمة عند أقصاه مشقوقة من أعلى إلى قرب الماء. من البحر لم ير نائل الشق؛ أما الآن، وقد صارت الصخرة خلف كتفه، فقد بدا كفتحة باب رفيعة.

أشارت إيسا إليها.

«تذكرها من هذا الجانب. الصخرتان عند المدخل تتشابهان إذا عدنا في الظلام.»

ربطوا السفينة إلى نتوء منخفض لا يظهر فوق خط الجرف. طلبت إيسا أن يُرخى الحبل قليلًا، ثم راقبت ارتفاع الهيكل وهبوطه مرتين قبل أن توافق على النزول.

قالت:

«خذوا الماء وما نستطيع حمله. بعد قليل لن نرى أين نضع أقدامنا.»

نزل أوران أولًا، ثم ناوله نائل الحقيبتين. انتظر رفال حتى فرغوا من إنزال المؤن. وضع قدميه على الدرجة، وحاول أن ينهض قبل أن يمد أحد يده إليه.

خانته الركبة الأولى.

أمسكه نائل من تحت إبطه، فاصطدم رأساهما، وخرج من رفال سباب مكتوم. كاد نائل يضحك من المفاجأة، لكنه شعر بارتجاف جسد الشاب على ذراعه.

«اتكئ عليّ.»

«أنا متكئ.»

«بوزنك كله.»

نظر رفال إلى الماء تحت السلم، ثم أرخى كتفه أخيرًا.

على الشاطئ جلست نيرفا لحظة لتشد الرباط حول ساقها. أدخلت يدها تحت ثوبها تتحسس شيئًا عند صدرها، ثم أخرجتها لتثبت غمد السيف إلى جانبها. رأى رفال الحركة وهو يستند إلى الصخر، وخفض عينيه إلى كفيه.

لم يتكلما.

حمل رائف بعض متاع إيسا، وأخذ نائل قربة إضافية. كانت السفينة وراءهم قد اختلطت بظل الجرف؛ لم يعد يرى منها إلا الحافة التي تلمع حين يرفعها الماء.

قال أوران:

«لا نشعل نارًا هنا.»

تطلع نائل إلى المنحدر. لا بيوت، ولا أرض مستوية تتسع لنومهم، ولا ماء عذب سمعوا جريانه. بقيت فوقهم بقعة من الضوء على شجيرة قصيرة، ثم انطفأت حين تحرك ظل الجبل.

تقدم ليختبر موضعًا يصعدون منه. انزلقت قدمه على الحصى، فوضع كفه على الأرض، ورأى أثر نعل في التراب الرطب تحت صخرة ناتئة. كان الماء قد محا طرفه السفلي، لكن خطوط الجلد ظهرت واضحة في أعلاه. وإلى جانبه أثر آخر يصعد بعيدًا عن الشاطئ.

رفع رأسه. وراء الشجيرة المتدلية كان غصن مكسور موضوعًا فوق غصنين صحيحين. أزاحه، فانكشف فراغ ضيق بين الصخور، وفيه عشب انثنى في اتجاه واحد.

نادى أوران بصوت منخفض.

تفحص الرجل الأرض، ثم نظر إلى الأعلى.

«استُعمل بعد المطر الأخير.»

قالت نيرفا:

«وقد يستعمله من لا نريد لقاءه.»

التفت نائل إلى رفال، الذي كان يضغط كفيه بين ركبتيه، وإلى إيسا وهي تحاول تعديل الحمالة بأسنانها.

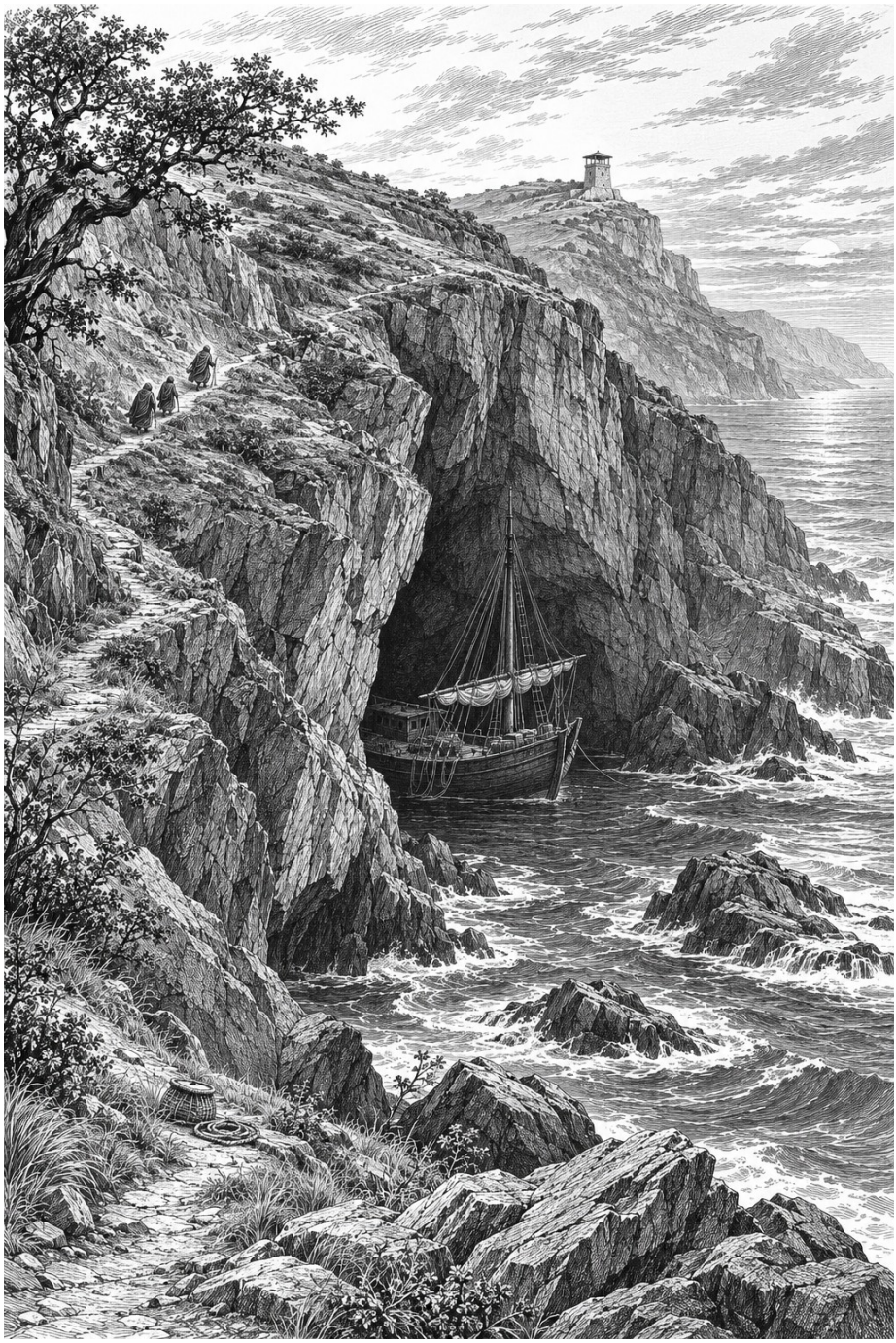
«هل عندنا موضع أفضل؟»

لم تجبه نيرفا. نهضت واختبرت ساقها، ثم أشارت إليه أن يتنحى عن المدخل حتى تمر قبله بضع خطوات.

قال أوران:

«نبقى قريبين. لا يصعد أحد وحده.»

أعاد رائف الغصن بعد مرورهم. وعندما بلغ نائل أول انعطافة، نظر خلفه إلى الخليج. لم ير السفينة. رأى فقط شق الصخرة، وقد احتفظ بخيط من ضوء السماء.



⁂

في الأيام التي سبقت وصول السفينة إلى ذلك الخليج، وجد سايرن سيراي في الرواق المطل على الساحة الداخلية بتيرافا.

كانت تقرأ رسالة قرب النافذة، وإلى جانبها مصباح لم يُشعل بعد. رفعت عينيها إلى كتفه قبل وجهه، فرأت رداء السفر مطويًا على ذراعه.

وضعت الرسالة على الحافة.

«حددت يومًا.»

«غدًا.»

ضغطت بأصابعها على طرف الورقة.

«وقد جئت.»

«قلت إنني سأفعل.»

تحركت قليلًا لتترك له موضعًا عند النافذة. في الأسفل كان رجل يجر دابة محملة بأكياس العلف. توقفت الدابة عند القوس، واضطر إلى العودة كي يفك حبلًا علق بحلقة في الجدار.

قالت سيراي:

«هل جاءك رد؟»

أخرج سايرن ورقة صغيرة من داخل ردائه. كانت مطوية حتى صار وسطها لينًا أبيض. لم يفتحها؛ مرر إبهامه على الحافة، ثم أعادها.

«وصلت رسالتي. ستنتظرني.»

«أختك أم الملكة؟»

نظر إليها، فخفضت عينيها عن وجهه.

«آمل أن ألقى أختي أولًا.»

ارتفعت من الساحة صرخة الرجل بالدابة، ثم صوت الأكياس وهي تحتك بالقوس. تابعت سيراي الحركة حتى عبرا، وقالت:

«لا أعرف ماذا أطلب منك. أن تبقى لا يحق لي، وأن تحذر ستسمعها من كل من يودعك.»

«اطلبي ما تريدين.»

التفتت إليه هذه المرة.

«خبرًا منك حين تصل. لا خبرًا عنك.»

لم يجب بسرعة. رأى يدها تنقبض على حافة الحجر، ثم تسترخي.

«سأرسل.»

مدت يدها إلى رداء السفر. كان أحد أربطته قد انفك من موضعه، فأدخلته في الحلقة وشدته. لم تكن العقدة تحتاج كل ذلك الوقت، ولم يتحرك حتى انتهت.

«دارِن يعرف الطريق إلى الرسول؟»

«يعرف.»

تركت الرباط.

عند باب الرواق توقف سايرن. كانت قد التقطت الرسالة مرة أخرى، لكنها لم تنظر فيها. رفع يده، فبادلته حركة صغيرة، ثم خرج قبل أن يضطر إلى اختراع شيء آخر يقوله.

بعد أيام، عند أول معبر استعادته قوات قاسران، أوقفه الحراس مرتين. في الثانية انتظر حتى حضر قائدهم، ورأى الرجل يحدق في وجهه طويلًا قبل أن يخفض السلاح.

لم يطلب منه سايرن أن يعتذر. سأله عن الطريق، وعن عدد الرجال في النقطة التالية، ثم واصل الركوب.

كانت ميرافا تقيم في دار حجرية داخل نطاق تحرسه وحدات متفرقة. عند بوابتها وجد عربات محطمة تُفرغ حمولتها في عربات أصغر، وخيولًا تأكل من أكياس معلقة إلى رؤوسها. لم يسمع أبواق استقبال. سمع رجلين يتجادلان حول محور مكسور، وصبيًا يسأل أين يضع الماء.

قادته امرأة عبر غرفة فيها أسرّة متقاربة. على أحدها جندي نائم وحذاؤه تحت رأسه. ثم فتحت بابًا وتركت سايرن يدخل وحده.

كانت ميرافا واقفة خلف طاولة. رفعت رأسها عند صوت الباب. انزلقت ورقة من تحت يدها ولم تلتقطها.

لم يقل شيئًا.

تقدمت خطوتين، ثم توقفت على مسافة ذراع. رفعت يدها إلى خده ولم تمسه أولًا؛ لمست طرف الجرح قرب فكه، وخفضت أصابعها كأنها خشيت أن تؤلمه.

«وصلت الرسالة.»

«عرفت.»

«رأيت العلامة قبل أن أقرأ الكلام.»

هز رأسه.

كانت علامتهما القديمة صغيرة في أسفل الورقة، كما طلب من حاملها أن يوصلها. حين رسمها لم يعرف إن كانت ستذكرها. الآن رأى الورقة على الطاولة، مفتوحة بين أوامر التموين.

«كم مرة فكرت أنك لست أنت؟» قالت. «وكم مرة غضبت لأن أحدًا عرف كيف يجعلني أصدق؟»

حاول أن يجيب، لكنها أمسكت بردائه وجذبته إليها.

ضغطت جبهتها إلى كتفه. شعر بأنفاسها تتقطع مرة واحدة، ثم استقامت. تردد سايرن قبل أن يضع كفه على ظهرها.

«تأخرت.»

«أعرف.»

ابتعدت ومسحت وجهها بكفها. نظرت إلى المقعد، ثم إلى النافذة، وأخيرًا قالت:

«قرهان في ساحة العربات.»

كان قرهان منحنيًا فوق لوح خشبي يستند إلى برميلين. ثبت رجل آخر طرف اللوح، بينما وضع هو عليه علامات بالفحم. رفع عينيه حين سكت الرجل المقابل له.

بقي الفحم بين أصابعه.

«أخلوا لنا المكان»، قال.

ابتعد الرجل، لكن قرهان لم يتحرك. نظر إلى سايرن من رأسه إلى حذائه الموحل، ثم وضع الفحم على اللوح.

«كان يمكن أن تكتب قبل ذلك.»

«لم يكن يمكن دائمًا.»

«ولم يكن يمكننا أن نتوقف حتى نعرف.»

أشار سايرن إلى العربات.

«أرى ذلك.»

اقترب قرهان. أمسك بذراعه فوق المرفق وضغط، ثم جذبه إلى عناق قصير آلم الضلع الذي لم يلتئم تمامًا. لم يتراجع سايرن.

عندما انفصلا، التقط قرهان الفحم من جديد، ثم تركه.

«سأحتاج إليك بعد أن تأكل.»

«في ماذا؟»

«لتخبر الرجال أنك عدت قبل أن تصلهم خمس روايات مختلفة.»

دخلوا على ميرافا بعد ذلك. استمع سايرن إلى أخبار المعابر التي استُعيدت، وإلى أسماء المواقع التي لم يصل إليها خبز منذ يومين. كانت قوات رهفان لا تتصرف كجيش واحد؛ وحدات رفضت أوامر إيردان، وأخرى شددت قبضتها على ما تحت يدها، وقادة ينتظرون ليروا لمن تكون الغلبة.

حين قالت ميرافا إن القيادة العسكرية تعود إليه، رأى سايرن قرهان يضم ورقة كانت أمامه ويضعها إلى جانبه.

أضافت، قبل أن يتكلم أحد: